وهؤلاء المستـهزئون ؛ قد أشركوا بالله ؛ فلم تنفـعهم الآلهة التى أشركـوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكـد لهم ذلك ؛ فَهُمْ يتـأكدون من صدق رسول الله ﷺ فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) ﴾

وفى هذا القـول الكريم يتـجلّى تقـدير الحق سـبحـانه لمـشاعـر النبـوة ، فـالحق يُكلّفـه أنْ يفعلَ كـذا وكـذا ، وسـبحـانه يعلم أيضـاً ما يعانيه ﷺ فى تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله سبحانه :

﴿ قَـدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْـزُنُكَ الَّذِى يَقُـولُونَ فَـإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فأنت يا رسـولَ الله أكرم من أنْ تكذبَ ، فـقد شهـدوا لك بحُسْن الصدق عبر معايشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) ﴾ [الحجر]

ومعنى ضيق الصدر أنْ يقلّ الهواء الداخل عَبْر عملية التنفُّس إلى الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثانى أوكسـيد الكربون ؛ ويعـمل الأكسـجين على أنْ يُؤكـسِدَ الغـذاء لِينتجَ الطاقة ؛ فإنْ ضاق الصَّدْر صارت الطاقة قليلة .

والمثَل يتضح لِمَنْ يصعدون السُّلَّم العالى لأىّ منزل أو أىّ مكان ؛ ويجدون أنفسهم ينهجون(١) ؛ والسبب فى هذا النهَج هو أن الرئة تريد أنْ تُسرِع بالتقاط كمية من الهواء أكبر من تلك التى تصل إليها ، فيعمل القلب بشدة أكثر كى يُتيح للرئة أن تسحبَ كميةً أكبر من الهواء .

أما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذى يتيح للرئة أن تأخذَ الكمية التى تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكأن رسول الله ﷺ حين كان يُكذِّبه أحد ، أو يستهزىء به أحد كان يضيق صَدْره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة ؛ ولذلك يُطمئنه الحق سبحانه أن مَدَده له لا ينتهى .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر فى نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه ؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك ؟ وَسِّع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ..(١٢٥)﴾ [الأنعام]

أى : يُوسِّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعانى التى جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً :

(١) نهج الرجل نهجاً فى النفس : هو تواتر النفس من شدة الحركة . [لسان العرب - مادة : نهج] .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا[1] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ[2] فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾ [الأنعام]

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكأن فيها مجاهدةً ومكابدةً ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء أكثرَ نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى فى الفضاء فلن يجد هواء .

ويدلُّ الحق سبحانه رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يُحزنه أو يؤلمه مُكذِّب ، أو مُسْتهزِىء ؛ فيقول سبحانه :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) ﴾

وهكذا يمكن أن تُذْهب عنك أىَّ ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاكَ البشْر أو ضايقك الخَلْق ؛ فاعلم أنك قادر على الأُنْس بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تُنزِّهه عن كُلِّ شىء وتحمده ، لتعيش فى كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

ولذلك إذا ضاق صدرك فى الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب .

---

(١) الحرج : الضيق . وحرج صدره : ضاق فلم ينشرح لخير . [لسان العرب ـ مادة : حرج] .

(٢) يصعد : أى يتصعد يرتفع فى السماء . والصُّعَد : المشقة . ويقال : تصعَّده الأمر إذا شق عليه وصعب . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، وسبحانه كاملٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تُشْبِه أىَّ ذات ، وصفاته أزلية مُطْلقة ، أما صفات الخَلْق فهى موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جَلَّ وعَلا يقول فى مسألة التسبيح :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا.. (٣٦) ﴾ [يس]

وهو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم]

وكُلٌّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ؛ فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذْنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً .

فكأن سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزعَ إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يَأْوى إلى رُكْن شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جَفْوة الخَلْق لهم ؛ فيقولون : إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به » .

وأنت حين تُسبِّح الله فأنت تُقِرّ بأن ذاته ليستْ كذاتك ، وصفاته

ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛ فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هى قدرة عَجْز وأغيار ؛ أما قدرته سبحانه فهى ذاتية فيه ومُطْلقة وأزلية ، وهو الذى يأتيك بكُل النِّعم .

ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أنْ يكونَ مثلك ، والحمد لله واجب فى كل وقت ؛ فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدُمَك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة ؛ فخيرُ تلك النعمة يصل إليك .

وحين تُسبِّح بحمد الله ؛ فسبحانه لا يُخلف وَعْده لك بكل الخير ؛ فَكُلُّنا قد نُخلف الوعد رغماً عنَّا ، لأننا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلف وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْتَ الله وحمدته .

وزدْ خضوعاً للمُنْعم ، فاسجُدْ امتثالاً لأمره تعالى :

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]

فالسجود هو المَظْهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان - كما نعلم - هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تَلْقَى الناس ؛ وهو أول ما تدفع عنه أىَّ شىء يُلوِّثه أو ينال من رضاك عنه .

ومَنْ يسجد بأرقى ما فيه[1] ؛ فهذا خضوع يُعطى عِزّة ، ومَنْ يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل

---

(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » أخرجه الدارقطنى فى سننه (٣٤٨/١) والحاكم فى مستدركه (٢٧٠/١) وقال : « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » . وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٢٣/١١) من طريق آخر بلفظ : « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تجز صلاته » .

أَوْجُه السجود ، وكُلُّنا نذكر قَوْل الشاعر :

وَالسُّجود الذِى تَجْتوِيه[1] فيهِ مِـــنْ أُلـوفِ السُّجودِ نَجَاةُ

والسجود هو قـمة الخضوع للحق سبـحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ الـبشرية حمل كثـيراً من المظالم نتيجـة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطى ـ كما نعلم ـ خَيْر العبد للسيد ؛ ولكن العبوديةَ لله تعطى خَيْره سـبحانه للعباد ، وفى ذلك قِمّة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

ونعـرف أن العبادة هــى إطاعة العـابد لأوامر المـعبود إيجـاباً أو سلْباً ، وتطبيق « افعل » و « لا تفعل » ، وكثيرٌ من الناس يظنون أن العبادة هى الأمور الظاهرية فى الأركان الخـمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ، وحِجِّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فـهذه هى الأُسس التى تقـوم عليها العـبادة . أى : أنها البِنْية التى تقـوم عليها بقية العبادة ، وهكـذا تصبح العبادة هى ، كُل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أى : أن حـركة الحياة كلها ـ حـتى كَنْس الشوارع ، وإمـاطة[2] الأذى عن الطريق ـ هى عـبادة ،

(١) يُقال : اجتويت المكان : إذا كرهت المقام فيه وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوا] .

(٢) إماطة الأذى : إبعاده وتنحيته جانباً . [المعجم الوجيز ـ مادة : ميط] .

وكل ما يُقصد به نَفْع الناس عبادة ، كى لا يصبح المسلمون عالةً على غيرهم .

وفى إقامة الأركان إظهارٌ لقوة المسلمين ، حين يُظهرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فَوْر أنْ يسمعَ النداء بـ « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً فى السنة ؛ فهو يُعلن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُبَاحة ؛ وأوَّل ما يأتى موعد الإمساك من قَبْل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتثال لأوامر الحق سبحانه يُذكِّرك بنعمه عليك ؛ فأنت فى يومك العادى لا تقرب المُحرَّمات التى أخذتْ وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحدَ من المسلمين يُفكِّر فى شُرْب الخمر ؛ ولا أحدَ منهم يُفكِّر فى لعب المَيْسر ، وانطبعتْ تلك الأمور ؛ وصارتْ عادة سلوكية فى إلْف ورتَابة عند غالبية المسلمين ممَّنْ يُنفِّذون شريعة الله ، ويُطبِّقون « افعل » و « لا تفعل » .

وعندما يأتى الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هى حلال لك طوال العام ، وتقضى أى نهار فى رمضان ونفسُك تستشرف سماع أذان المغرب لتُفطِر .

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك ليُعوِّدك على الكثير من الطاعات التى تصير عند المؤمنين عادةً ؛ وسبحانه يريد أنْ يُديم عليك لذَّة التكليف العبادى .

وبعضٌ من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم قوله الحق :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر]

ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير « لقد وصلت إلى مرتبة اليقين » ، ويمتنع عن أداء الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحجٍ إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدّعي أن التكليف قد سقط عنه ؛ لأن اليقين قد وصله .

ونقول لمن يدعى ذلك : أتُخادع الله ورسوله ؟ وكُلُّنا يعلم أن رسول الله ﷺ ظَلَّ يُؤدّى الفرائض حتى آخر يوم فى حياته . وكُلُّنا يعلم أن اليقين المُتفق عليه والمُتيقن من كل البشر ، ولا خلافَ عليه أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خُصوصيات المؤمن ؛ فما أنْ بلغه أمرها من القرآن فقد صدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتّى أمرُها . والمثَلُ الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحدّثونه بالأمر الغريب من رسول الله ﷺ ، فكان يقول « ما دام قد قال فقد صدق » .

أما الكافر - والعياذ بالله - فهو يشكُّ فى كل شيء غيبيّ أو حتى ماديّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أنْ يأتيه الموت حتي يعلمَ أنه اليقين الوحيد .

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشكّ من يقين الناس بالموت »[١] .

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٧٨٧/٥) وتمام الأثر : « ثم لا يستعدون له » .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكنَّا نُزحزح مسألة اليقين هذه بعيداً عنَّا رَغْم أنها واقعةٌ لا محالةَ . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هى اللحظة التى لا ينفع فيها شىء إلا عمل الإنسان إنْ كان مؤمناً مُؤدِّياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تبلغك به .

أما عَيْن اليقين ؛ فهى التى ترى الحدث فتتيقَّنه ، أو هو أمر حقيقىّ يدخل إلى قلبك فَتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدِّقه تصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذِّهْن ليُناقَش من جديد ، وله مصادر عِلْم ممَّنْ تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذبَ أبداً ؛ وهذا هو « علم اليقين » ؛ فإنْ رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ .

وها هو الإمام علىّ ـ كَرَّم الله وجهه وأرضاه ـ يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التى حدَّثنا بها رسول الله غيباً ما ازددتُ يقيناً » .

وها هو سيدنا حارثة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « كأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهلَ النار فى النار يُعذَّبون ، فيقول له رسول الله ﷺ : « عرفت فالزم »[1] .

وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله ﷺ .

(١) أورده ابن حبان فى المجروحين (١/١٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، فى ترجمة أحمد بن الحسن بن أبان المصرى . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به .

سُورَةُ النَّحْلِ

